أنا والطفل

هناك بعيداً عن المدينة وضوضائها ، في الطريق المؤدية الى قصر كان بالامس للخديو اسماعيل ولم يعُد لهُ ، على شطّ ممبود المصريين ومرضع سهول ايزيس — على شطّ النيل النائم في سيره على رمات العذارى المبعثر في أعماقه — هناك روضة غناء مفتوحة لجميع الداخلين وقد حفظجوُها احلام زائريها المتأملين

قصدت الى الحديقة في صباح يوم منير . نبذتُ عني عادات المدنية فافترشتُ الثرى كما يفترش سكان البادية رمال الصحراء ، وتمدّدتُ على العشب الاخضر في فيء شجيرةٍ عند قدمي أحد التماثيل المنصوبة هنالك

لم أر حولي سوى سيدتين انجليزيتين مع إحداهما ثلاثة اطفال . ولم هي الاّ دقائق حتى اقترب مني أحد هؤلاء وهو صبي في الرابعة من سنواته . فناديتهُ قائلة :

— « تعالَ إليَّ ، أيها الصغير !

قدنا واجفاً باسماً ، فسألتهُ :

— « ألا تجلس على ركبتي ؟ »

فجلس صامتاً

ولما شعرتُ بثقل جسدهِ الصغير ذكرتُ أخي الوحيد الميت ووثب قلبي إلى شفتيّ وجالت الدموع بين اجفاني . فلتُ الى الطفل أمتعُ من حلاوةِ وجنتهِ والهو بتلك القبلة عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي كما يتصاعدُ الغيمُ من أطراف البحار

ما أعذب قبلة الاطفال ، وما أطيب طعم ابتسامهم !

ثم سألتُ الطفل : « ما اسمك ؟ »

قال : « روبرت »

نظرتُ في وجههِ فاذا بهِ آية من آيات الجمال الانجليزي : وجهٌ شفافٌ كأنما هو عصير وردٍ وياسمين تجمّد فنحت وجهاً بشرياً . وفمٌ كزرّ الورد لطفاً وانكماشاً . وجبهةٌ كبيرة عالية يُخفيها شعر ذهبي مسدول عليها . وعينان فيهما زرقةٌ عميقةٌ كزرقة البحار بُعيد الغروب ، وهما ككثير من العيون الانجليزية في جمودهما الظاهري وحرارتهما الخفية وحلاوتهما وتلاعبهما . نظرتُ في جميع

هذه الملامح بتسمّن فقلتُ للطفل :

— « من أين أتيتَ بعينيكَ ، يا روبرت ، ومَن أعطاكَ زرقتهما ؟ »

أجاب ، ولم يفهم غير كلمتي « من أعطاك » :

— « ماما »

قلتُ : قرّت عينا امك بكَ ! وأيّ عملٍ يعملُ أبوك ؟ »

قال ، ولثغاتهُ اللطيفة تتدحرجُ على لسانهِ متعثرة بشفتيهِ :

— « بابا ضابط ، وأنا عسكري مثل بابا »

قلتُ : أنت جميلٌ وأنا أحبكَ يا روبرت . هاتِ يدك »

قال : "Yees, than k'ou"

يدُ الاطفال عجيبةٌ حلوة كابتسامهم . أخذتُ يدَ روبرت أقرأُ فيها ما خطّتهُ يدُ الاقدار. يدٌ مربعة كبيرة الابهام وفيها كلٌّ من خطوط الحياة والعقل والقلب واضحٌ جليّ ؛ وتلُّ المريخ يتسعُ في تلك الكفّ الصغيرة مهدّداً متوعداً ...

فنظرتُ اليهِ وخاطبتهُ همساً :

— « هذه اليد التي تنقلُ اشاراتها اليوم ما حفظتهُ من اشارات الملائكة ، هذه اليد التي لا تعتدُّ الاّ لمداعبة الندى ولمس الازاهر ، هذه اليد الصغيرة الطرية سوف تصير يد جنديّ . سوف تقبض على السيف والحربة وتُطلقُ النيران من افواهِ المدافع ، سوف تفتكُ بحياة البشر اشراراً كانوا أم أبراراً ... »

قال روبرت وهو يضربُ اديم الحديقة بقدميهِ :

— « أنا عسكري مثل بابا ! »

قلت : « نعم يا روبرت ، ان أنتَ بلغتَ سنَّ التجنّد كنتَ جندياً . وستكون جميلاً في ثوبك العسكري ، ستكون جميلاً جداً . لكن اقلّ جمالاً منك اليوم وأنت بأثواب الطفولة . سوف تبسمُ لك النساء لانهنّ يملن الى الجندرد ، ومذهّب الاكمام والصدور يسير بهنّ الى عالم الاحلام . وهذه اليد الصغيرة الضعيفة سوف تكون كبيرة قادرة تؤلم وتُشقي وتميت ، سوف تلمسُ آلات التدمير والهلاك بعزم وثبات ! وعيناك الجميلتان سوف تكونان عينَي جلاد يرى الدماء والدموع دون ان يلين ويرحم ... وقلبك ، ترى كيف يكون قلبك الذي لا يُدركُ اليوم ولا يشعر الاّ قليلاً ... ؟

« هل تكون من اولئك الكثيرين الذين لا يحسبون للعواطف في الحياة حساباً، فيلعبون ويضحكون ويتسمون ويحزنون غير انهم لا يستبقون اثراً لما يختبرون، بل تمرُّ الافراح والاتراح على نفوسهم كما تسقط دموع الغيوم على صفحة الزجاج فلا تترك عليها الاَّ اثراً وقتياً لا يلبث ان يزول ... ام تكون من اولئك الذين يشعرون بقوة وحدّة ويتظاهرون بعكس ذلك كبراً وخجلاً ؟ ... هل تضربك يوماً يدُ امرأة فتنضحُ في عينيك للحبّ دموعاً وتشد في فؤادك من اليأس خنجراً؟

« غداً ، يا روبرت ، تنمو جسداً ونفساً ، غداً تقف على احوال البشر فتجد ذاتك وحيداً في معترك الحياة ،

« غداً تعذبك المسؤلية وتعنيك المجاهدة ، ويلذعك لهيبُ الفكر وتذيبك نارُ الهيام . غداً تذوق طعمَ الروح . غداً تصير بشراً . يا لهول الكلمة ! غداً تصير بشراً ، اي حيواناً ونطاً معاً ! .. »

صمتُّ طويلاً

وفي ذلك الهدوء الشامل في حضن الطبيعة تصاعدت نغمةٌ حلوة من اطراف الحديقة وانتشرت موجاتها على انفاس الازهار ، وكان ذلك صوت المؤذن يردّدُ في الظهيرة ما أنشدهُ في الفجر وما سيعيدهُ عند الغروب

فقلت : « هل سمعت الصوت ، يا روبرت ؟ »

أجاب : "yees"

قلت : « عما قريب تعرف ما هي الميثولوجية ، وما هي النصرانية ، وما هو الاسلام . عما قريب تفهم ما هو التعصّب الدينيّ والجنسيّ والعنصريّ والعائليّ والفرديّ . عما قريب تعلم ان الانسجة التي تخاط منها أثواب العرس تصنع منها أكفانُ الشهداء . عما قريب ترى الاقوام يفتكون بالاقوام لانهم يحتشدون تحت قطعة نسيج صُبغت بلون غير لون نسيجهم . عما قريب ترى كل هذا يا روبرت وتشعرك فيهِ لانك عسكري مثل بابا ! »

انفصلتُ عن روبرت بلا قبلة ولا تحية . أنا لم أقبلهُ لاني وقفتُ مُهيبةً امام رجُل الغد . وهو لم يقبلني لاني لم أعطهِ كعكاً ولا حلاوى ! !

(مي)